

### الإعجاز البلاغي والبياني لدى المحدثين

أغلب البحوث في الإعجاز البلاغي والبياني لدى المحدثين لا تخرج عن آراء المتقدمين إلا أنها تتسم بالجدة في العرض والحيوية وفي الرسم والتشخيص والتفصيل في الدراسة للخصائص والسمات الكاشفة عن جمال الأسلوب القرآني والبلاغة النبوية ومن أبرز فرسان هذا الباب هو الدكتور: عبدالله دراز في كتابه (النبأ العظيم)، وعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) في كتابها (الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق) وسيد قطب في كتابه (التصوير الفني في القرآن الكريم) ... وغيرهم.

#### أولاً- خصائص الأسلوب القرآني ومميزاته لدى المحدثين:

١- معنى الأسلوب: معنى الأسلوب لغة: يقال للفن وللوجه وللمذهب وللطريق بين الأشجار، وأقربها للمعنى الاصطلاحي: هو: طريقة المتكلم في كلامه.  
أما معنى الأسلوب اصطلاحاً: هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه، أو هو الفن الكلامي الذي انفرد به المتكلم.  
- معنى الأسلوب في القرآن الكريم: هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه. ولا غرابة فلكل كتاب أو مؤلف أو خطيب أسلوب، بل الأسلوب يتعدد بتعدد الموضوعات المطروقة.

#### -الفرق بين الأسلوب والمفردات و التراكيب:

الأسلوب غير المفردات والتراكيب، كون الأسلوب الطريقة التي سار عليها المؤلف في اختيار المفردات والتراكيب لكلامه، ولذا فقد اختلفت أساليب المؤلفين بأساليبهم في النثر والنظم مع أن المفردات واحدة، والتراكيب واحدة، والجمل واحدة، وهذا هو سر اختلاف أسلوب القرآن عن أساليب وكلام العرب مع أنه بلغتهم، إذ دخل عليهم من باب لغتهم فأعجزهم ولو أنه كان في غير لغتهم لكان لهم عذر، قال ﷺ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾، ومثاله فإنك تجد الخياطين يختلفون بإنتاجهم مع أن المواد هي المواد والآلات هي الآلات، والخيط هو الخيط، والإبرة هي الإبرة، ومرجع اختلافهم وحقيقته هي في

الأسلوب والفن والطريقة والتعبير،،ولك أن تتصور إنتاج الصيادلة والبنائين وغيرهم،،وكذلك التعامل مع اللغة فحروفها ومفرداتها وتراكيبها واحدة،، ولكن البيان والأسلوب والطريقة والتعبير يختلف من مؤلف إلى آخر، كون اللغة فيها ما هو واضح وبين وفيها ما هو غامض وعم وخاص ومطلق ومقيد ومجمل ومبين ومعرف ومنكر وحقيقة ومجاز، والتراكيب تبع لذلك.. الخ. وهذه المنوعات من الكلام لا يحسن استعمالها بشكل مطلق، و لاشيء منها يسوء استعماله بشكل مطلق، إذ لكل مقام مقال، فما يحسن استعماله في موضع قد يسوء استعماله في موضع آخر، فمرجع الأمر في حسن الاختيار من أنواع الكلام بما يناسب الأحوال والمقامات، قال علي رضي الله عنه: (كلموا الناس على قدر عقولهم)، وهكذا كان القرآن فيه وعد ووعد وشرائع وعقائد وقصص وأمثال لكل مقام مقال، ولم يظفر الوجود بكلام أبلغ منه في تناول الموضوعات المختلفة وهذا هو سر قبوله وانتشاره بين الناس والإيمان به لمجرد سماعه.

٢- خصائص الأسلوب القرآني: وهذه الخصائص كثيرة جداً وقد اقتصر المُحدثون على اثني عشر خصيصة منها فقط:

١- مسحته اللفظية: جماله اللغوي حروفه وكلماته ومخارج حروفه وأصواتها...فهذا ينقر وهذا يصفر وهذا يخفي وهذا يظهر وهذا يهمس وهذا يجهر وهذا شديد وهذا لين وهذا رقيق وهذا خشن، امتزجت به خشونة وجزالة البداوة برقة ولطافة الحضارة من دون ميوعتها إذ تلاقت فيه جميع الأذواق، خاطب الدعاة فقال ﷺ: «ادعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» وقال ﷺ: «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك» ولو نزعت كلمة من محلها لاختل المعنى وسقط.

٢- إرضائه الخاصة والعامة: فلو تلوته على العامة أو الخاصة أو الكبار أو الصغار العرب أو العجم الكل يجد فيه ضالته، وليس كذلك كلام البشر أنظر ألى قوله: ﷺ: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ . إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ» وقوله ﷺ: «وَالْخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» لما يظهر في

المستقبل من وسائل نقل، وقوله ﷺ: «تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا».

٣- إرضاءه العقل والعاطفة: فهو يخاطب الجميع، العقل والعاطفة والحق والجمال اسمع إلى حديثه عن الإعادة قال ﷺ: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، في جمال وبراعة وعقل وتفكر وتدبر.

٣-ترابط الأجزاء وتناسب السرد: فهو لا يدانيه كلام بشر رغم تنوع مقاصده وتلون موضوعاته فهو متأخي الكلمات مترابط الأجزاء متناسب الآيات والسور فكأنه كائن حي سوي الخلق حسن السمات، قال ﷺ: «قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ».

٤-براعته في تصريف القول وأفانينه: وهذا يعود إلى ثروته الفنية سيما في الحقيقة والمجاز، من مثل:

١-الأمر والصرحة: قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...».

٢-الإخبار بأن الفعل مكتوب عليهم قال ﷺ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ».

٣- الإخبار بأن الفعل مكتوب على الناس جميعاً: قال ﷺ: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ».

٤- الإخبار بأن الفعل هو خير لهم قال ﷺ: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ».

٥-طلب الفعل بصيغة الأمر: قال ﷺ: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ». فكانت

أساليبه بين الأمر والنهي، والحلال، والحرام، والجمال فعليها وإسميها، ففيه جمال وحلاوة لا يملها القارئ ولا يسأم منها السامع فضلا عن تحوله من موضوع إلى آخر وكيفية تناوله لمسألة المرأة وحقوقها، ذكرها باحترام وتقدير.

٦-جمعه بين الإجمال والبيان: وهما غابتان متقابلتان لا تجتمعان في كلام العرب ولكنهما اجتمعا في القرآن ففيه المجل وفيه البين الواضح المريح للنفس وكلما دقت فيه لاحت لك معان جديدة كلها صحيحة قال القائل: يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا.

٧- قصده في اللفظ مع وفائه للمعنى: ففي كل لفظ تجد وفاء بالمعنى ولا تجد فيه زيادة أو نقصاً في المعنى، قال عبدالله دراز: قوله ﷺ: «ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير» كل العلماء قالوا الكاف زائدة وزيادتها واجبة لنفي الشبيه لله تعالى، لأنه لو كان هناك مثل أو شبيه لله تعالى لكان هذا المثل مثل قطعاً لأن كل مثل مثل لصاحبه ولأجل ذلك زيدت الكاف لأنه لا يتم انتقاء المثل إلا بها، ووضع الكاف لأقصاء العالم كله عن المماثلة لله وعمّاً يشبهه بالمماثلة أو يدنو منها ولو تجرد عن الكاف وقلت ليس له ولد ل قيل لعل له بنت، فقال كلمة شيء مع وجود الكاف للنفي المطلق عن مشابهة الله سبحانه مما يدل على أصل التوحيد.

٨- الفخامة والقوة والجلال: يتبين ذلك من انتقاء الألفاظ من دون امتهان فيها ولا ابتذال، ومن استعمال ألوان التوكيد والتكرير استمع اليه وهو يصف الأبرار في سورة الإنسان: قوله ﷺ: «ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا». وقال ﷺ: «عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً...». وقوله ﷺ: «ان للمتقين مفازا حدائق واعنابا..» إلى نهاية السورة. ويقول ﷺ: في حديثه عن العلاقات الزوجية وحالة الوطء: «فلما تغشأها حملت حملاً خفيفاً فمرت به..» وعن خطبة النساء يقول ﷺ: «ولأجناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكروهن ولكن لا تواعدهن سراً».

٩- التصوير الفني البديع: فهو ينقل لك الحقيقة مصورة ومجسمة ومتحركة وشاخصة بيّنة انظر إلى تناوله لقصة أصحاب الأخدود، قال ﷺ: «قتل أصحاب الأخدود (٤) النار ذات الوقود (٥) إذ هم عليها فعود (٦) وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود (٧) وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد»، وكان رائد هذا الفن هو الشهيد سيد قطب في كتابه التصوير الفني في القرآن الكريم.

١٠- تلوين الأسلوب بين القوة واللين: إذ اتخذ أسلوباً هادئاً وليناً يدعو إلى التأمل والتدبر قال ﷺ: «وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر أنتخذ صنماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين، وكذلك نرى إبراهيم مكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم

يَهْدِينِي رَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ»، وحينما يتدفق الأسلوب ويندفع في جمل قصيرة يرسلها كالصواعق سيما حينما يهجم الحق على الباطل: قال ﷺ: «ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (١٢) وَبَيْنَ يَدَيْهِ شُهُوداً (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (١٦) سَأَرْهِفُهُ صَعُوداً (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقَتَلَ كَيْفَ فَدَرَّ (١٩) ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ فَدَرَّ» وفي سورة الواقعة والقارعة يرسل بالآيات وكأنها حقيقية مجسمة ومؤثرة بشكل فظيع يعجز البشر.

١١ - أسلوبه الخاص في الفواصل: فمن فواصله ما كان مسجوعاً أو مرسلأً وكلاهما مما يخالف العرب في السجع والإرسال، فالقرآن قد يسجع في قليل منه، وقد يسجع في السورة الكاملة، كما في سورة القمر.. وقد تتفق الفواصل في الوزن لا في الحرف الأخير من مثل: ((قضباً...، نخلاً...)) وقد تكون الجملتان المسجوعتان قصيرتان أو طويلتان، ولا يبقى من مظاهر السجع إلا الفاصلة، كون الآيات مرسلأً، واختلف الإرسال في القرآن عن الإرسال عند العرب، وذلك بسبب الفاصلة المتحدة أو المتماثلة في آخرها وقد تتوازن الآي من دون سجع كما في سورة العاديات قوله ﷺ: «والعاديات ضبحا فالموريات قدحا...» .

١٢ - نظامه الصوتي العجيب: وهو ما عبر عنه بعلم التجويد المتجسد في حركاته ومداته وغماته والانسجام بين حروفه وكلماته فقد اكتسب روعة وإيقاعاً بديعاً، انظر: قوله ﷺ: «وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ»، تأمل مواضع القلقلة فيها ولاحظ خاتمتها المهولة المتعلقة بالمجرمين المكذبين... الخ.

ثانياً - وجوه من البيان القرآني: وهذه بعض أمثلة البيان القرآني في الموضوع:

١- دقة استعمال الألفاظ في القرآن الكريم:

استعمل الألفاظ استعمالاً مقصوداً ولك أن تقف على استعمال كلمة (عين): فهي تجمع على نوعين من الجمع:

١-تجمع على (أعين) وعلى (عيون)، فاستعمل كل منهما في موضع مناسب لا يصح استعماله في الموضع الآخر فلفظ(عيون)يستعمل حصراً في عيون الماء قال ﷺ: ﴿في جنات وعيون﴾ وقوله ﷺ: ﴿فجرنا فيها من العيون﴾...واستعمل كلمة أعين حصراً في عيون الرأس المبصرة، قال ﷺ: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ وقوله ﷺ: ﴿فأتوا به على أعين الناس..﴾ ، وانظر إلى استعماله لكلمة ((الريح)) فهي مفردة وتجمع على (رياح) ففي مقام العذاب والانتقام يطلقها مفردة قال ﷺ: ﴿..ريح فيها صر﴾ وقوله ﷺ: ﴿..ريح فيها عذاب أليم﴾، وفي مقام الرحمة يطلقها بصيغة الجمع قال ﷺ: ﴿ومن آياته يرسل الرياح مبشرات﴾، وقد يأتي بلفظ المفرد لاقتضاء السياق والبلاغة القرآنية قال ﷺ: ﴿وَجَزَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ..﴾ إذ استعمل المفرد للإشارة إلى عدم ثباتهم على التوحيد والإيمان.

ومثلها استعماله لكلمة (مطر) وكلمة (غيث) فاستعمل الأولى في مقام العذاب واستعمل الثانية في مقام العذاب، ومن عجيب دقة استعماله لكلمة (قسم) وكلمة (حلف)، فاستعمل الأولى لليمين الصادقة قال ﷺ: ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ وقوله ﷺ: ﴿وانه لقسم لو تعلمون عظيم)، واستعمل الثانية لليمين الكاذبة قال ﷺ: ﴿فلا تطع كل حلاف مهين.﴾ وقوله ﷺ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾. وكذلك في استعماله لكلمة (يشاقق) (ويشاقق)، فإذا أراد الإشارة إلى الله ورسوله فك الإدغام قال ﷺ: ﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب.﴾ ، وإن أراد الإشارة إلى الله وحده أبقى على الإدغام كما هو قال ﷺ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وقد يفك الإدغام إذا أراد الرسول وحده قال ﷺ: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى﴾، ومن أبلغ ما عرف بلغة العرب أستعماله لكلمة(ضيزى) فهي أغرب كلمة في القرآن ولم يستعملها العرب

لافي نثرهم ولا في شعرهم لنقلها وقد كشف الرافي عن سر استعمالها في القرآن الكريم فقال إن لحسن استعمالها عدة اعتبارات منها:

١-وردت هذه الكلمة في سورة النجم وجميع نهايات آياتها (ألف)، ولو استبدلت بكلمة (جائرة) لكانت نشازاً، فجيء بها للالتئام وللتناسق الصوتي قال عليه السلام: «الْكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى. تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى».

٢-جاءت معلقة على سلوك معيب للكافرين الذين يئدون البنات ينسبونهن إلى الله.

٣-استعملت الآية الاستفهام الإنكاري(الكم..) واستعملت في آخرها أسلوب التهكم قال عليه السلام:

«تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى».فاشتملت على غرابة لفظ وغرابة إنكار وتناسق صوتي جميل.

٤-وأبلغ العجب في نظم الكلمة وائتلافها مع ما قبلها، قال عليه السلام: «إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى»، فيها

مدان وغنتان، فيها مدان الإخفاء الحقيقي، وغنتا الإخفاء الحقيقي. الغنة الأولى خفيفة حادة،

والغنة الثانية ثقيلة مستطلة متفشية، كأن العملية مجاوبة موسيقية تتناسب مع سياق السورة.

٥-وهذه المعاني الأربعة المتقدمة جمعت في أربعة أحرف هي(ضيزي)، ففي هذه الكلمة غرابة في القسمة، وغرابة في اللفظ، وانسجام في المعنى على أتم وجه، مع التئام في السياق والإيقاع.